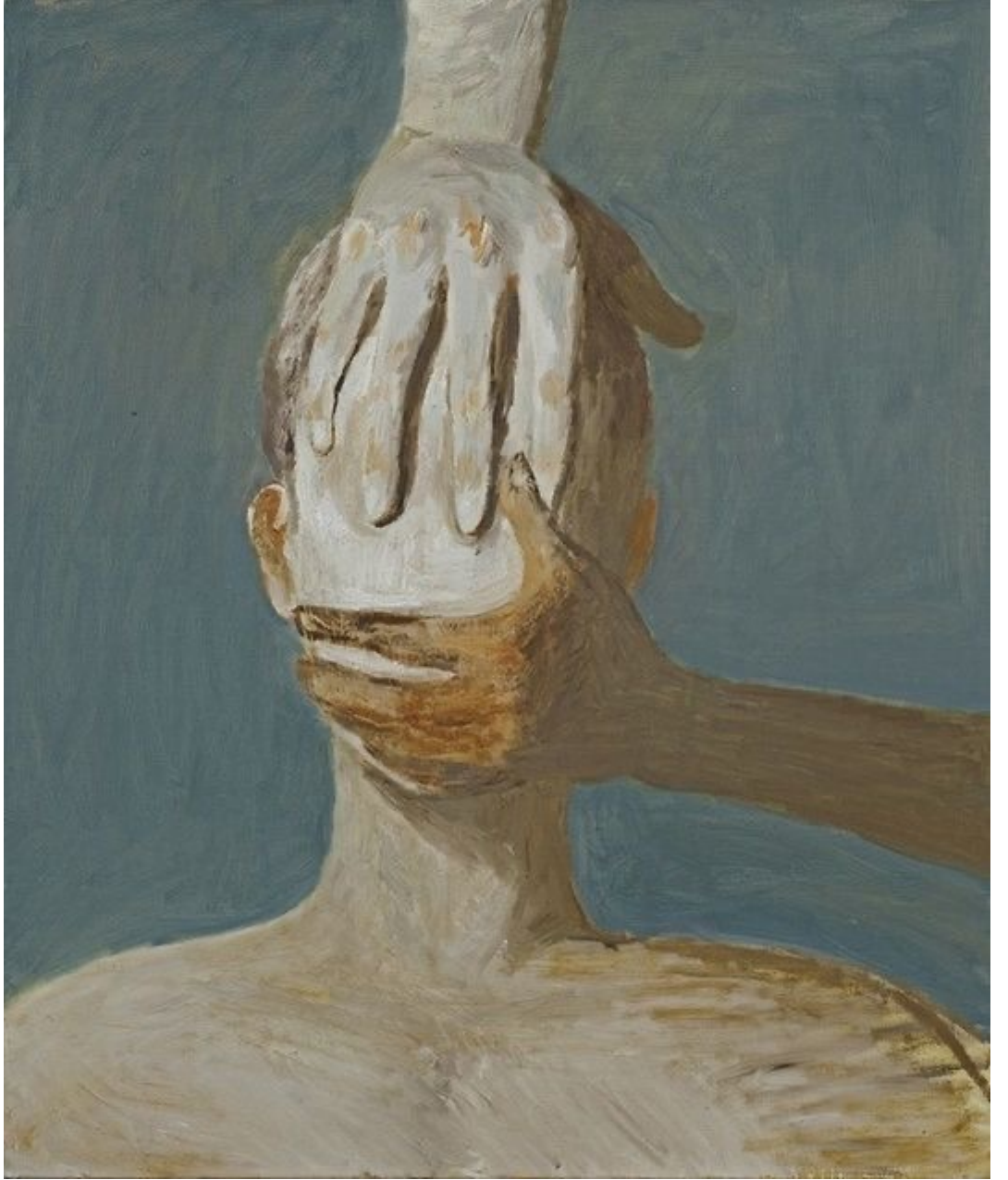


العقل بين الحرية والهيمنة: رحلة في أخطر أشكال الاستبداد

25 سبتمبر، 2025





يبدو الإنسان في ظاهره كائناً حراً، يختار ما يشاء ويمشي حيث يريد، لكن الحرية الجسدية مهما اتسعت تظل قاصرة إذا لم ترافقها حرية الفكر. فالجسد المسجون قد يتحرر يوماً، أما العقل المستلب فإنه يعيش أسيراً حتى لو كان صاحبه طليقاً. إن أخطر ما يمكن أن يتعرض له الإنسان ليس القيد الذي يغلّ يديه أو السوط الذي يلهب ظهره، بل ذلك القيد غير المرئي الذي يغلق عقله أمام السؤال، ويحوّله إلى وعاء يردد ما يُملأ عليه بلا نقد أو تمحيص.

التاريخ حافل بالشواهد التي تؤكد أن الطغاة لا يحتاجون إلى السجون إذا نجحوا في السيطرة على العقول. فمحاكم التفتيش في أوروبا لم تكن مجرد أدوات للعقاب، بل كانت مصانع للرعب تُنتج جيلاً لا يفكر إلا ضمن الحدود التي تضعها الكنيسة. والأنظمة النازية والفاشية لم تفرض هيمنتها بالقوة العسكرية وحدها، بل بالدعاية الجبارة التي أحالت الملايين إلى أتباع يصفقون للدمار وهم يظنون أنهم يسرون نحو المجد. إنها أمثلة تعلمنا أن أخطر ساحة للسيطرة ليست الجسد بل العقل، وأن الاستبداد الحقيقي يبدأ عندما يتحول الفكر إلى ملكية بيد سلطة عليا لا تسمح بمساءلتها.

حين قال كارل ماركس عبارته الشهيرة: **"الدين أفيون الشعوب"** لم يكن يقصد الدين كقيمة روحية تسمو بالإنسان، بل حين يُستغل لإسكاته وترويضه. لم يكن يتحدث عن الإيمان النقي، بل عن حين يتحول الخطاب المقدس إلى وسيلة تخدير تعطل العقل وتُسكّنه عن مواجهة واقعه. وهذه الوظيفة ليست حكرًا على الدين وحده؛ فكل خطاب سياسي أو إعلامي أو أيديولوجي يُمنح قداسة مطلقة يمكن أن يصير **"أفيوناً"** يشلّ النقد ويستلب الوعي.

وقد لامست د. حنة آرندت جوهر هذه الفكرة في كتابها عن "تفاهة الشر". الشر عندها ليس نتيجة شياطين استثنائية، بل نتاج عقول توقفت عن التفكير. أشخاص عاديون، ينفذون أوامر اعتُبرت حقائق نهائية، فيصبحون أدوات في آلة طغيان ضخمة. وهنا تكمن الخطورة حين يغدو العقل عاجزاً عن السؤال يتحول الإنسان من ذات فاعلة إلى ترس صغير يدور في ماكينة كبرى بلا إرادة.

ويكشف د. جوست ميرلو في كتابه "اغْتصاب العقل" عن تقنيات غسل الدماغ وأساليب السيطرة النفسية. الضغط، التكرار، التشهير، كلها أدوات تُستخدم لتفكيك مقاومة الفرد وإعادة برمجته فكرياً. وما يزيد الأمر خطورة أن هذه التقنيات لم تعد حكرًا على الأنظمة المستبدة، بل أصبحت جزءاً من أدوات الإعلام التجاري والإعلانات السياسية وحتى الحملات الرقمية المعاصرة. إنها أساليب تبدو في ظاهرها بريئة، لكنها بمرور الوقت تُحدث في الإنسان تحوّلاً داخلياً عميقاً يجعله يرى الوهم كأنه حقيقة، ويقبل الاستبداد وهو يظنه حرية.

وهنا أستحضر كلمات د. مصطفى محمود في كتابه "العقل والإيمان":
"العقل إذا غاب عنه النقد تحول إلى صنم يعبد صاحبه، وأصبح الإنسان عبداً لفكرة لا يجرؤ على زحزحتها". إنها صورة دقيقة للإنسان الذي يظن أنه مفكر، بينما هو في الحقيقة أسير فكرة ثابتة لا يجرؤ على مراجعتها. فالاستبداد الفكري أخطر من الاستبداد السياسي لأنه يُمارس من الداخل، ويجعل صاحبه سجيناً وهو يظن أنه في قمة الحرية.

أما د. فؤاد زكريا فقد نبه في كتابه "التفكير العلمي" إلى أن أخطر ما يواجه العقل ليس السجن أو القمع المباشر، بل استسلامه للشعارات المكررة والخرافات المريحة. هذه الشعارات تزرع وهم الطمأنينة وتلغي الحاجة إلى السؤال، فتنشأ عقلية كسولة تقبل ما يُملى عليها دون جهد في البحث. إن أخطر ما يهدد حرية الإنسان ليس الجلال، بل ذلك الكسل العقلي الذي يختار الإجابات الجاهزة بدل المغامرة في التفكير.

ويضيف د. زكي نجيب محمود في "تجديد الفكر العربي" أن تحجر المفاهيم وتحويلها إلى مسلمات مغلقة هو أخطر ما يواجه العقل العربي. فالجمود لا يقل خطراً عن الاستبداد المباشر، إنه يقتل القدرة على الإبداع ويشلّ التفكير النقدي. وإذا كان الاستبداد يقيد الجسد، فإن الجمود يشلّ الروح والعقل معاً. إن شعوباً كثيرة لم

تنهَر لأنها عانت من قهر سياسي مؤقت، بل لأنها استسلمت لجمود فكري ممتد جعلها أسيرة الماضي وغير قادرة على مواجهة الحاضر.

إن أخطر عمليات استلاب الوعي لا تحدث بضربة واحدة، بل تبدأ بخطوات صامتة ومتدرجة. قد تبدأ بكلمة تُردَّد، أو بشعار يتكرر، أو بصورة تفرض نفسها في الوعي يومًا بعد يوم، حتى تستقر في اللاوعي كحقيقة نهائية لا تُمسّ. ومع الإعلام الرقمي تضاعفت خطورة هذه العملية، فالشاشات لا تكتفي بعرض المعلومة بل تعيد صياغة أولويات الإنسان وتوجه وعيه نحو ما هو عابر وتصرفه عن مواجهة ما هو جوهري. لم يعد الخطر في أن يُمنع الإنسان من التفكير، بل في أن ينشغل بما لا يستحق التفكير ويهمل ما يستحق.

وسائل التواصل الاجتماعي التي تبدو كمنابر للحرية قد تتحول إلى أقفاص ناعمة. الخوارزميات التي تديرها لا ترى في الإنسان سوى مستهلك، وتعيد تدويره وفق مصالح تجارية وسياسية. إنها تصوغ الرأي العام بشكل خفي، وتدفع الناس إلى ملاحقة الترنّد، فيغدو العقل أسيرًا لما هو زائف ومصطنع. وهنا يظهر أخطر أشكال الاستبداد: أن يُسلب الإنسان حريته وهو يظن أنه يملكها.

وليس هذا مجرد تنظير فلسفي فالتاريخ مليء بالأمثلة. في العصور الوسطى أُغلق باب الاجتهاد فاستُلبت قرون من الإبداع الإسلامي. وفي القرن العشرين انقادت شعوب كاملة وراء فكرة القائد الملهم أو الحزب الواحد حتى ذابت ذواتها. واليوم يتكرر المشهد في صورة جديدة عبر السيطرة الرقمية، حيث تُستلب العقول بوسائل أكثر نعومة لكنها أكثر شمولاً وانتشاراً.

لهذا كله أقول إن أخطر ما يمكن أن يفقده الإنسان ليس جسده بل عقله. فحين يُسلب العقل، تُسلب إنسانية صاحبه، ويتحول إلى ظل يتحرك بلا روح. ومقاومة هذا الاستبداد تبدأ من الفرد بجرأة السؤال، بالقراءة التي توسّع المدارك، وبالحوار الذي يفتح الأفق، لكنها لا تنتهي إلا بجماعة تقدّس التعددية وترفض الوصاية على العقول.

الأوطان لا تسقط حين تُحاصر بالجيوش بقدر ما تسقط حين تتخلى عن التفكير الحر. المجتمعات لا تنهار من الخارج بقدر ما تنهار من الداخل عندما تعجز عن السؤال وتستسلم للجهاز والمكرر. لهذا فإن معركتنا الكبرى ليست في الساحات الظاهرة، بل في أعماق الوعي.

وبذلك يبقى العقل الحر هو الوطن الأول والأخير. فإذا سقط هذا الوطن، ضاع كل شيء. وكما قال المتنبي:

إذا غامرتَ في شرفٍ مرومٍ
فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

فالشرف اليوم هو شرف الفكر الحر، الذي لا يقبل أن يُستلب، ولا يرضى أن يتحول إلى صدى باهت لغيره.